تعريف ونقد

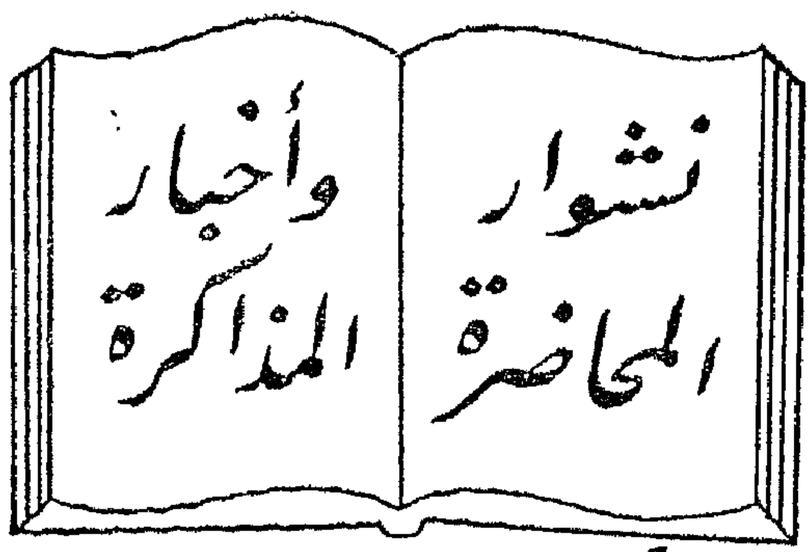

للقاضي أبي علي المحسن التنوخي

تحقيق : الأستاذ عبود الشالجي
تعريف ونقد : الأستاذ محمد يوسف موسى

أذكر أن الأجزاء الثلاثة التي نشرت من (نشوار المحاضرة) بهمة المستشرق البريطاني المعروف د.س. مرجوليوث وجميل سعيه كانت من الأعمال الجليلة في عالم نشر التراث العربي حين صدر الجزء الأول سنة ١٩٢١ مطبوعا في مصر ، وصدر الجزء الثامن في سنة ١٩٣٠ مطبوعا في دمشق، وصدر جزء ثالث في دمشق سنة ١٩٣٢ على أنه ثاني أجزاء الكتاب الذي ضاع أكثر أجزائه على توالي العصور .

وفرح الأدباء والعلماء والمؤرخون منذ صدور الجزء الأول من النشوار سنة ١٩٢١ ، لأنهم وجدوا في الكتاب مادة ثرية خصبة لعرض ملامح كثيرة من المجتمعات العربية الأسلامية في القرن الرابع الهجري . وهي ملامح رآها المؤلف التنوخي رأي العين ، او سمع بها من ثقات ممن أخذ منهم وروى عنهم .

ومع عروبة المؤلف أبي علي المحسن التنوخي وأصالته في النسب العربي الصميم، فأنه لجأ إلى كلمة غريبة النسب واللفظ ليجعلها عنوانا لكتابه ، وهي لفظة (نشوار) التي اختارها لأن النشوار ما يظهر من كلام حسن ، فيقال : (إن لفلان نشوارا حسنا . أي كلاما حسنا) . وسواء أكانت كلمة (النشوار) بالشين المعجمة كما وجدت في الأصول ، أو بالسين المهملة كما يلفظها العامة وكما وجد بخط القاضي أبي جعفر أحمد بن أسحاق بن البهلول التنوخي وهو حجة في رواية اللغة ، فأنها لم يصقلها الاستعمال على مدى القرون بدءاً من القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه القاضي التنوخي ، وقد ظلت قرابة ألف عام وهي منعزلة عن اللسان إلا ما كان من التصاقها بكتاب القاضي التنوخي ، فهي لا تذكر إلا معه ، ولا ترد إلا متصلة به

وقد حرك ما في كتاب النشوار — من طرائف ونوادر لم ترد في نص آخر — همة أديب عربي معاصر هو الأستاذ العراقي عبود الشالجي المحامي، على أن ينشر نشوار المحاضرة كاملا ، استنادا إلى ما يقع له من مخطوطات لهذا الكتاب : فنص لهذا الغرض العظيم همته وعزمه ، وظل يتابع كل مخطوطة لهذا الكتاب

في أماكن وجودها ، وأغرم بهذا العمل غراما شديدا ، وظل يبحث عن الأجزاء الضائعة من هذا الكتاب ليضمها إلى المطبوعة : :

وهدا البحث والتقصى إلى مخطوطة الجزء الأول بباريس : وإلى مخطوطة تشتمل على الجزءين الأول والثانى فى مكتبة مراد ملا باستنبول : وقد أكدت له هذه المخطوطة الأخيرة أنها هى الجزء الثانى من النشوار : وأن ما نشر سنة ١٩٣٢ على أنه الجزء الثانى ليس إلا ثالث أجزاء الكتاب : : : أما بقية الأجزاء فقد ظلت ضائعة : فكيف يجمعها وينشرها وليس لديه أصولها الخطية ؟

هنا لجأ محققنا الفاضل إلى عمل جرىء فى عالم نشر التراث لم يسبقه إليه أحد كما يصرح هو بنفسه فى مقدمته للجزء الأول من الكتاب .. ولعله لم يكن محتاجا إلى هذا التصريح الذى يكشفه القارىء بأدنى نظر دون حاجة ألى اعتراف من المحقق : : : ولعله أراد بذلك أن ينتهزها فرصة ليرد بها فى إيجاز على المعترضين على منهجه الجرىء هذا فى التحقيق ، فقال بنص عبارته : « ولعل بعض القصص التى نقلتها كانت من رواية أبى القاسم التنوخى ، ابن المؤلف : ولعل بعض القصص ، وإن كانت من رواية المؤلف ، إلا أنه ليس ثمة دليل قاطع على أنها مما اشتمل عليه كتاب النشوار . وردى على من اعترض على إيرادها عن ما كتبه المؤلف فى خاتمة مقدمة الجزء الأول من الكتاب ، حيث قال : « لو كان فى إيراد هذه القصص وتسجيلها خير من موضعها بياضا ، لكانت فائدة . . . »

والحق أن المحقق الفاضل التمس الخير من طريق غير مأمون المغبة ، ولا سليم العاقبة ؛ فإن جمع نصوص مفقودة من كتاب من مصادر مختلفة ، لايقوم فى ذاته منهجا سليما لنشر التراث ، أو لنشر كتاب من كتب التراث على الأقل. وهو منهج مع خطورته أو خطره اعترف المحقق بأنه موضع اعتراض من الغير الحريصين على نشر التراث سليما كما أراد له أصحابه : ولكن الذى ألجأه إلى ركوب هذا المركب الوعر ، والمزلق الخطر أنه رأى أن ذلك خير من أن تترك مواضع الكتاب بياضا : : كما رأى ذلك المؤلف التنوخى من قبل . . . ولكن شتان بين الموقفين . فأن التنوخى حين كان يجمع الأخبار من أفواه من شاهدوها كان له مطلق الحرية والاختيار فى إيثار خبر على خبر ، أو تقديم نص على نص. فالنصوص كلها بين يديه ، وهى تستوى فى إيرادها جملة أو حذفها جملة أو إيراد بعض وحذف بعض . أما الأستاذ المحقق عبود الشالجى حين ركب هذا المركب لجمع أخبار توهمها للقاضى التنوخى ، أو رواها التنوخى ونقلت عنه فى مصادر أدبية وتاريخية أخرى ، فإنه قد يضيف إلى التنوخى مالم يرده أن يكون فى كتابه النشوار . ونحن نشاهد من واقع تجاربنا الخاصة أن المؤلف منا قد يؤثر مؤلفا من مؤلفاته بخبر أو نادرة لا يريدها أن تكون فى كتاب آخر له . فكيف يقضى الأستاذ عبود الشالجى — متحكما وذا سلطان — بأن ما ورد للقاضى التنوخى من روايات وأخبار نقلها عنه الرواة والمؤرخون هى مما اشتمل عليه كتاب النشوار

الذى ضاعت منه أجزاء لم يوقف لها على أثر . وهل معنى رواية نسبت إلى القاضى التنوخى فى كتاب مثل المنتظم لابن الجوزى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان أنها مما اشتمل عليه كتاب النشوار ؟

على أن محققنا الفاضل لا يجد فى تلك القضية الخطيرة بأسا . بل يقول فى بساطة : (ثم حاولت ـ من بعد ذلك ـ أن أتتبع الفقرات الضائعة من النشوار ، فى ثنايا الكتب ، فأعيد جمعها . وكان ذلك بدء عمل مضن ، بذلت فيه وقتا وجهدا وصبرا . وراجعت مؤلفات ابن الجوزى : المنتظم ، والأذكياء ، وأخبار الحمقى والمغفلين ، وذم الهوى ، وتلبيس إبليس . كما راجعت تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ الوزراء للصابى ، ومؤلفى ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، ووفيات الأعيان ، وغيرها من الكتب ، فوجدت فيها ينبوعا ثرا من القصص التى تروى عن مؤلف النشوار ، غير أنها وردت بأسماء مختلفة . ووجدت أن قسما من تلك القصص قد أثبتت فى الأجزاء المنشورة من النشوار . فتأيد لى من ذلك أن القصص التى وردت مروية عن أصحاب تلك الأسماء ، أنما هى مروية عن صاحب النشوار ، وأنها قد اقتطعت من ذلك الكتاب ، فاستللتها من مواضعها ، وضممتها إلى بعضها ، واعتبرتها من الفقرات الضائعة من النشوار..)

هكذا وبكل بساطة استوى من كتاب نشوار المحاضرة ـ المفقود بعض أجزائه ـ بضعة أجزاء استلها المحقق من كتب أخرى متوهما أنها من النشوار ـ دون سند صحيح أو بينة قوية ـ وليس لها من سند ألا أنها وردت فى طائفة من المؤلفات منسوبة إلى التنوخى ، فجزم محققنا الفاضل بأنها من نشواره .

وهنا نسأل سؤالا آخر : كيف جاز لمحققنا الفاضل أن يجمع هذه الأخبار الشتى من مصادر متفرقة ، ثم يؤلف من كل طائفة منها جزءا يسميه الجزء الرابع ، أو الخامس ، أو السادس من النشوار ؟ فهى جمعه وتنسيقه وتقسيمه هو لا جمع المؤلف ولا تنسيقه ولا تقسيمه . ومن هنا هل نجرؤ على القول إن هذا المنشور كله هو نشوار المحاضرة كما أراده مؤلفه وجامعه الأصلى ؟ وما الظن لو أن الجزء الخامس من النشوار المخطوط قد كتب له الظهور بعد خفاء ، فهل نجده مثل الجزء الخامس الذى صنعه المحقق الفاضل ؟

الحق أن دافعا نبيلا ، وباعثا عظيما هو الذى حمل الأستاذ عبود الشالجى على أن يسلك هذا المسلك الوعر ، حتى يضم أشتات ما تبعثر من أجزاء النشوار المخطوطة الضائعة ، وحتى يسوى من ذلك الذى جمعه كتابا يسميه هو نشوار المحاضرة ، ولكنا نخشى أن تكون المقابلة بينه وبين الكتاب الأصلى مخيبة للآمال .

على أن الأستاذ المحقق لم يلجأ إلى هذا الجمع استهانة به ، وتهوينا من شأنه . فقد كان يعلم أنه مقبل على أمر عظيم ، وأن هذا الجمع المتتبع ، والتعقب الدقيق لمرويات القاضى

التنوخى ومأثوراته مما هو أشبه أن يكون من كتاب النشوار هو عمل شاق مضن اقتضاه كثيرا من الجهد ، والتنبه والتفطن ألى المظان ، كما اقتضاه أن يحمل مسئولية لا يقوى عليها كثير من أصحاب العزائم . فهو يعلم أن عمله هذا ومنهجه فى الجمع قد لا يرضى الملتزمين بأصول التحقيق ونشر التراث : ولكنه أقدم على ما توسمـــه صحيحا ليصون لنا كتابا ضائعا .

وقد يكون ـ غفر الله له ـ قد بعد بكتاب النشوار عن أصله وعن نسقه ، ولكنا نراه راضيا عن عمله هذا ، لأنه لم يقصد به إفساد نص ولا بتره ولا التزيد عليه ، ولكنه أراد به رد الاعتبار والوجود ألى كتاب أغلبه ضائع مفقود .

وهب أن ما جمعه الأستاذ عبود الشالجى ليـــس النصوص الـــكاملة لكتـــاب نشوار المحاضرة ، فهل ننكر أن هذه المجلدات الثمانى الأنيقة الطبع ، الجميلة الأخراج تعد فى ذاتها ثروة أدبية تاريخية رواها القاضى التنوخى ، ولو لم تكن من متن كتابه نشوار المحاضرة ؟

وإذا جاز لبعض الملتزمين بأصول النشر ، وقواعد تحقيق التراث أن ينكروا أن نشوار المحاضرة فى هذه الأجزاء الثمانية هو نشوار التنوخى الأصلى ، فهل ينكرون أننا الآن مع كتاب رائع طريف حافل بأكثر ما روى عن القاضى التنوخى من أخبار ونوادر وأسمار ؟

فلنقبل هذه الحصيلة العظيمة الضخمة من أخبار القاضى التنوخى فى هذه الطبعة الرائعة التى أصدرها الأستاذ عبود الشالجى ، ولنغض النظر ـ ونحن مستمتعون بأطيب ما فيها من طرائف ـ عن أنها هى نشوار المحاضرة كاملا غير منقوص ، ولا مزيد ؛ ؛

وهل تشغلنا هذه القضية فى منهج تحقيق التراث من أن نعترف بما بذله المحقق من جهد ، وما أسداه عن فضل حين قدم لنا مجموعة نادرة من أخبار القاضى التنوخى ومذاكراته ومحاضراته الشائقة سواء كانت مما اشتمل عليه كتاب النشوار أم لا ؟ إنه فى الحق أمتعنا بثمرة طيبة من ثمرات التنوخى لم يشأ أن يجعلها بياضا ، فدونها وجمع أشتاتها . ولك بعد هذا أن تسميها قصصا وأخبارا من نشوار المحاضرة للتنوخى ، أو قصصا وأخبارا من مرويات التنوخى

وقيمة هذه القصص والمرويات والأخبار الطريفة العجيبة أنها أدخل فى باب تصوير المجتمع العربى الأسلامى منها فى باب الأدب والأســـار ، فهى صور واقعية وقعت فى القرن الرابع الذى عاش فيه التنوخى ، وهى صور فيها كثير من ملامح بغداد وأهلها ، وأفراحها ومآتمها ، وعبادها وفساقها ، وقضاتها وشهودها . . . وقد خالط التنوخى كل لون من الناس ، وعاشر كل جنس ، ولقى العلماء والشعراء فى زمانه وروى عنهم :

وأنشد أشعارهم أو استنشدهم إياها . وكان ممن لقيه المتنبي وقال عنه فى مقدمة نشواره : (وما أحسن ما أنشدنى أبو الطيب المتنبي لنفسه من قصيدة فى وصف صورتنا :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم)

ولم يكتف التنوخى بأن يسمع من فم أبى الطيب شعره يلقيه عليه الشاعر الفحل بنفسه ، بل إنه ازداد على المتنبي اجتراء فسأله عن نسبه وهو يمر ببغداد سنة ٣٥٣ هـ ، ولكن المتنبي الغامض اعتذر لسائله عن الأفصاح عن حقيقة نسبه . والتقى التنوخى بالشاعر الماجن ابن حجاج البغدادى ، وروى شيئا من شعره الذى أنشده فى مجلس الوزير أبي الفضل الشيرازى : وقد أعان التنوخى على الجاه فى عصره صلته بأعاظم الرجال فى وقته ، فهو قريب من عضد الدولة البويهى ، وهو معروف عند الخليفة العباسى الطائع ، ومن هنا أتيح له أن يخطب فى الحفل الذى أقيم عند زواج الخليفة الطائع بابنة الملك البويهى عضد الدولة

وقد أتاحت الملابسات المختلفة لصاحب النشوار أن يرى المجتمع العربى فى ظاهر أمره وخافيه ، وأن يدخل إلى القصور كما يتسلل إلى الأكواخ . ومن هنا نقع فى النشوار على غرائب الأحداث ، فهناك حكايات واقعية عن مروءة الوزير حامد بن العباس ومكارم أخلاقه ، وعن وقار الوزير على بن عيسى وتزمته ، وعن ابن رزق الله التاجر البغدادى الذى يوقف فى بلاد الروم أكسية لتدفئة أسارى المسلمين ، وعن الوزير عبيد الله بن سليمان الذى يبيح جزءا من مال الدولة لأحد صنائعه . . . وعن هندى يقتل فيلا عظيما بحيلته دون حاجة إلى سلاح ، وعن القصرى غلام الحلاج الذى كان يصبر على الجوع خمسة عشر يوما ، وعن المرأة البغدادية التى كانت تتظرف فتحرف القرآن . وعن النحوى الزجاج وكيف درس النحو على المبرد صاحب الكامل ، وعن ابن الحواصة الذى فتح داره لترتكب فيها الفاحشة علانية ، وعن ذلك الرجل الذى خبأ ماله فى برنية ، فعجل ذلك بسرقتها ، وعن كردك الديلمى الذى اغتال رجلا استأمنه طمعا فى ماله . . . وغير ذلك من الأحداث التى كانت تموج بها بغداد والعراق والبصرة وبقاع كثيرة من العالم العربى . ومن أجل هذا ازدحم كتاب النشوار فى طبعته الجديدة بمئات ومئات من المصطلحات التى فهرس لها المحقق فى معجم عمرانى عام ؛ وهو معجم يهدينا إلى آلاف من المصطلحات التى خلقتها طبيعة المجتمع العربى فى عصر التنوخى وما حوله بقليل ، ولن نأخذ هنا فى سرد بعض هذه المصطلحات ، ولكن القارىء للنشوار سيجد فيها حصيلة تصور له

المجتمع العربى على حقيقته . وتدلنا حقيقة هذه الصورعلى أن الأول لم يترك للآخرشيئا . . . وأننا اليوم نكررما دار بالأمس تأكيدا لمسيرة الأنسانية فى مسارها الطويل . فعندنا اليوم ما يسمى (بالمزاد) الذى تباع فيه السلع ــ وخاصة المستعملة ـ عن طريق المزايدة على أسعارها ، فصاحب السعر الأعلى يرسوعليه المزاد . وقد كان ذلك فى العصر العباسى ، وكان يسمى (النداء) لأن إعلان السعر كان يتم بطريق المناداة عليها . وقد كان من عادة النعمان بن عبدالله ــ وهو أحد كبار العمال فى الدولة العباسية ــ إذا كان فى انسلاخ كل شتاء ، أن يعمد إلى جميع ما استعمله من خز وصوف وفرش وكوانين وآلة الشتاء فيبيعه فى « النداء ، أى فى المزاد لينخلص منه .

والحق أننا لا نملك أنفسنا إزاء ما فى النشوار من أخبار وحكايات ووقائع أن نعجب مما صنعه المؤلف ليجمع مادة هذا الكتاب الممتع الطريف . ومزية القاضى التنوخى أنه لم يجمع مادة كتابه من كتاب كما كان يصنع غيره من المؤلفين ، وأنما جمعه مما تناثر على أفواه الرجال ، وما دار بينهم فى المجالس ... فهو كتاب منقول عن الأفواه لا عن صفحات الكتب ، وزاد عليه التنوخى ما رآه هو بعينه فى خلال مخالطاته الكثيرة فى الحياة . ويبدو أن كتاب النشوار قضى عليه أن يستغرق حقبة طويلة من الزمان جمعا فى البداية ، وإعادة جمع فى نهاية المطاف بعصرنا هذا ... فقد قضى التنوخى فى تأليفه عشرين عاماً كما جاء فى معجم الأدباء . لياقوت ، وقضى المحقق عبود الشالجى أعواماً كثيرة فى جمع ما تصوره ضائعاً من أخبار النشوار ، وكذلك الكتاب العظيم يحتاج إلى وقت أطول ، وجهد أعظم .

وإذا كان القاضى التنوخى غير مسبوق فيما اتخذه لنفسه من منهج لتأليف كتاب نشوار المحاضرة ، وذلك عندما اشترط على نفسه أن لا يجمع كتابه من كتاب ، فإن صديقنا الروحى الأستاذ عبود الشالجى غير مسبوق حين استخلص ما ضاع من أجزاء النشوار وجمعها من كتب أخرى غير الكتاب الذى يحققه ، وكأنه بهذا أراد أن يوائم بين سبق التنوخى وسبقه حتى تتم المشاكلة فى العمل العظيم .

ولم يقدم الأستاذ عبود الشالجى طبعته لكتاب النشوار عارية من الجهد الذى يدل على ما بذله فى سبيل تحقيق النصوص التى جمعها من مختلف المظان، فكل صفحة من الكتاب فى أجزائه الثمانية المطبوعة على أجمل ما تكون الطباعة العربية تزدحم بالهوامش المزدحمة بالتعليق والتحقيق والمقابلة والترجمة للأعلام وغير ذلك مما تقتضيه أصول النشر العلمى . وهذه الفهارس المتنوعة فى كل جزء لموضوعات الكتاب وأسماء الأشخاص ، والفهرس الجغرافى ، والفهرس العمرانى وثبت المراجع والمصادر للتحقيق، تدل كلها على الروح العلمية التى يتسم بها محققنا الجليل :

محمد عبد الغنى حسن